المبحث الثاني
مناقشة منكري النبوات

النتيجة التي خرجنا بها من مبحثنا السابق هي:

أن الإنسان لا يستطيع أن يكتفي بعقله وضميره في كل شيء مما ينبغي له أن يعرفه مما يتعلق بالله وصفاته، وما لا بد منه من شرائع لتنظيم حياته الأولى، وصلاح أمر المجتمع فيها، وحياته الأخرى وما يكون فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم.

ومن هنا كانت حاجة العقل الإنساني إلى مُعين يستعين به في إدراك ما يعجز عن إدراكه من ذلك حاجة ماسة وضرورة ملحّة.

ومع ذلك فقد ذهب قوم من الناس إلى القول بعدم حاجة الإنسان إلى هَدي النبوة ووحي الرسالة.

زاعمين أن الإنسان يستطيع أن يقوم وحدَهُ، وأن يكتفي بعقله في تنظيم حياته وتلبية حاجاته.

والذاهبون إلى ذلك فريقان:

فريق ينكر النبوات والرسالات السماوية، لأنه ينكر الإله تعالى ولا يعترف بوجوده. ومن البديهي أن مَن ينكر المرسِل وينفي وجوده، لا بد وأن ينكر رسوله، ولا يعترف بهديه ورسالته، وقد عرف هؤلاء في التاريخ بالملحدين أو الماديين.

وقد وجد منهم جماعات في كل زمان ومكان. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يؤثروا في الرأي العام الإنساني، ولا أن يحرفوه عن فطرته، فبقي الإنسان مؤمناً بالله، مستنيراً برسالاته في دررب الحياة المظلمة.

ومناقشة هذا الفريق لا تكون في إثبات النبوات ومدى حاجة العقل الإنساني إلى هديها، وإنما تكون في البرهنة على وجود المبدع الأول، والخالق الأعظم لهذا الكون

وما فيه. ومحل ذلك مبحث الإلهيات، وليس هنا.

الفريق الثاني: يعترف بوجود الله - ﷻ - ويؤمن به، ولكنه ينكر النبوات والرسالات السماوية، مكتفين بما تدركه عقولهم من خير أو شر، فضيلة أو رذيلة، زاعمين أن بعث الرسل منافٍ للحكمة، فلا يقع من الحكيم تبارك وتعالى.

وعلى رأس هذا الفريق كثير من براهمة الهند[١] والصابئة[٢] وبعض الفلاسفة، وقد تأثر بفلسفتهم بعض الزنادقة من المسلمين[٣].

استدل هؤلاء على وجهة نظرهم بجملة أدلة، نورد أهمها ونبيّن تهافتها وبُعدها عن الحق والصواب فيما يلي:

١ - **قالوا**: إن ما يأتي به الرسول لا يخلو إما أن يكون مما يعرفه العقل، أو مما لا يعرفه.

فإن جاء بما يعرفه العقل كان لا فائدة منه، ولا حاجة لنا إليه، ويكون في العقل غنى وكفاية.

وإن جاء بما لا يعرفه العقل، كان حرياً به ألا يتلقى بالقبول، لأن المقبول هو الذي تدركه العقول.

وأجيب عنه: بأن هذا الدليل واضح البطلان، لأن كل مطلع على الرسالات

---

(١) البراهمة: نسبة إلى (برهم) وهو اسم الله في اللغة السنسكريتية. وهو عندهم الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس، ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له، وهو الأصل الأزلي الذي يستمد منه العالم وجوده.

والهندوسية: دين توحيد من جهة، ودين تعدد من جهة أخرى، وتظهر فيها عقائد بدائية كعبادة قوى الطبيعة، وعبادة الأجداد، وعبادة البقر بشكل خاص.

انظر أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص[illegible] والفصل في الملل والنحل لابن حزم ج١ ص[illegible] والملل والنحل للشهرستاني ج٢ ص[illegible] والأديان دراسة تاريخية مقارنة للدكتور رشدي عليان ص٨٧.

(٢) انظر لنا كتاب الصابئون [illegible] ص[illegible].

(٣) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي المتوفى سنة [illegible]. وراوند قرية من قرى قاسان بنواحي أصبهان. والزندقة حركة [illegible] هدمه، واتخذت أسساً فكرية مناقضة له. انظر الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد [illegible] موسى ص١٢٣ والغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية للدكتور عبدالله سلوم السامرائي ص[illegible]. وابن الريوندي الملحد للدكتور عبدالأمير الأعسم.

السماوية يعلم أنها قد اشتملت على ما يعرفه العقل وعلى ما لا يعرفه.

فأما ما يعرفه العقل فكان لهذه الرسالات مهمة التأكيد عليه والإلزام به، وفي ذلك دعم لمكانة العقل، وتعبير عملي عن أهميته في بناء الحياة.

وأما ما لا يعرفه العقل ـ وهو الأكثر ـ فإن للرسالات السماوية دور إرشاد العقل إليه، وتنبيهه إلى ما فيه النافع الصالح، ووضع الحلول المناسبة لما يصادف الناس من مشاكل الحياة المتجددة، وشؤونها المعقدة.

وما قد يبدو مخالفاً لما يقتضيه العقل من التشريعات السماوية كبعض أعمال الحج[1] فهو ناشيء عن قصور العقل أحياناً عن إدراك المصالح والمفاسد الحقيقية وعدم إحاطته غالباً بالمصالح الأخروية[2].

٢ ـ **قالوا**: إن الرسول من جنس المرسل إليه، وتفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه حيف ومحاباة وخروج عن العدل والحكمة، وذلك غير جائز على الحكيم العادل ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأجيب عنه[3]:

١ ـ بأن الله جلّت حكمته إن يخص بفضله وكرمه مَن يشاء من خلقه كما أن له أن يسوي بين سائرهم.

وهذا لا ينافي كونه ـ تعالى ـ عادلاً حكيماً.

٢ ـ ويلزم من دليلكم. . . أن يكون الله غير عادل، لأنه خصّ بعض خلقه بالعلم والذكاء وكمال الجسم والحواس، وخلق في بعض آخر الجهل والغباء والنقص في الجسم والحواس.

---

(١) مثل تقبيل الحجر الأسود، والهرولة، ورمي الجمار، فإن العقل المجرد يعجز ولا شك عن إدراك الغاية منها، ويكون الإتيان بها من قبيل التعبد والتأسي بالرسول و﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذا ما حمل عمر بن الخطاب ﷺ على قوله، عندما همَّ بتقبيل الحجر: (أعرف أنك حجر لا تنفع ولا تضر، والله لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك). ولا شك أن في التأسي بالرسول والالتزام برسالته مصالح أخروية ومنافع دنيوية ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

(٢) انظر: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للحِلّي ص٢٧٣.

(٣) انظر: التمهيد للباقلاني ص١٠٤ ـ ١٠٦.

وأنتم لا تقولون بذلك، بل تقولون أن ذلك لمصلحة الطرفين وسبيل لهم إلى نفع عظيم، والله تعالى أعلم به.

فلتكن خصوصية بعض الخلق بالرسالة أو غيرها مصلحة للطرفين ـ الرسول والمرسل إليه ـ ولطفاً لهم في النظر في حجج العقول التي أمرهم بالرجوع إليها والعمل بموجبها.

٣ ـ قالوا: إن الله ﷻ حكيم. ومَن يبعث رسولاً إلى مَن يعلم أنه يكفر به ولا يصدق رسوله، بل يعصيه ويؤذيه يكون عابثاً. فوجب نفي بعث الرسل عن الله ﷻ لنفي العبث عنه.

وأجيب عنه: بأنه يترتب على دليلكم جواز بعث الرسل إلى مَن يعلم قبوله منهم وانتفاعه به.

كما يترتب عليه أن لا يحتج الله ـ تعالى ـ بالعقول، وما وضعه فيها من الأدلة على مَن يعلم أنه يجحدها ولا يستدل بها.

فإن قلتم: لقد استدل بها كثير، واهتدى بهديها كثير.

قلنا: وقد صدّق بالرسل كثير، واهتدى بهديهم كثير.

فما المانع من أن يحتج الله ـ ﷻ ـ على عباده عن طريق واحد منهم يرسله إليهم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢] وفنون المعرفة. كما احتج عليهم بالعقل، وجعله مصدراً للمعرفة[1].

٤ ـ قالوا: إن كان الله تعالى إنما بعث الرسل لهداية الناس إلى الإيمان به، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم، فقد كان أجدر به، وأتم لمراده، أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به وإلى معرفة ما فيه خيرهم.

وأجيب عنه: بأنه يلزم من دليلكم القول بأنه كان أجدر به، وأولى في حكمته وأتم لمراده أن لا يدعو الناس للإيمان به والتعرف على شريعته عن طريق النظر العقلي والاستدلال المنطقي، سيما وأنه تعالى يعلم أن فيهم مَن لا يستدل وفيهم مَن لا يحسن الاستدلال.

فكان أولى به أن يضطر عقولهم إلى الإيمان به..، ولا يكلفهم مؤونة النظر والاستدلال، وأن يلطف بهم إلطافاً يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة.

---

(١) التمهيد للباقلاني ص١٠٤ ـ ١٠٦.

فإن قلتم: إن الله تعالى قد رأى أن في تكليفهم بالإيمان عن طريق النظر والاستدلال مصلحة لهم، وتكريماً لعقولهم.

قلنا: وما المانع من أن يبعث إليهم رسولاً منهم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢][1] سيما وأن في ذلك ـ بدون شك ـ مصلحة محققة لهم، ودعماً لمعارفهم ومداركهم العقلية.

٥ ـ قالوا: إن كان الغرض من إرسال رسول هو استحقاق الثواب بالإيمان والطاعة، واستحقاق العقاب بالكفر والمعصية.

فبإمكاننا أن ننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره لنعمائه علينا.

وإذا عرفناه وشكرناه كنا أهلاً لثوابه ونعمه، وإذا أنكرناه وكفرنا بنعمائه كنا جديرين بعقابه. وعليه فلا موجب لبعثة الأنبياء.

وأجيب عنه: بأن العقول ـ مهما بلغت من السمو والرفعة والكمال ـ لا يمكنها الاهتداء إلى حقيقة الإيمان وشرائطه، والمعارف ووجوه الطاعات، وما هو اللائق في مقام شكره من دون بيان من الله تعالى على لسان رسله.

وأدل دليل على هذا (ما نراه قبل الرسالات الإلهية من الضلال الذي شمل العالم في ذلك الزمان القديم، بل ما نراه بعد أن خفت صوت الرسل، وضاعت معالم الرسالات الماضية إلى قبيل رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، إذ كان الناس ـ كما نعرف جميعاً ـ يعبدون ما شاؤوا من حجر أو شجر، وما ينحتون من تماثيل وأصنام، ويؤلهون بعضاً منهم، ويستذل بعضهم بعضاً آخر.

بل إن المصريين القدامى مع عبقريتهم العلمية، كان منهم مَن ألّهوا الفراعنة وعبدوا العجل.

وكذلك كان اليونان الأقدمون، مع عبقريتهم أيضاً في الفلسفة والعلم، وثنيين ومثلهم الرومان القدامى، مع حظهم الموفور من الفلسفة والأخلاق والقانون. فكيف غير هذه الأمم الراسخة الأقدام في التفكير، تلك الأمم التي حرمت الاستعداد العقلي والفكري)[2].

٦ ـ قالوا: إن مما يبطل الرسالة هو أنا وجدنا المدّعين لها يستدلون على صدقهم بمستحيلات عقلية. مثل: فلق البحر، وخلق ناقة من صخرة، وقلب العصا

---

(١) انظر: التمهيد للباقلاني ص١٠٦ والفصل في الملَل والنِّحَل لابن حَزم ج١ ص٦٩، ٧٠.

(٢) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور محمد يوسف موسى ص٢٢٣.

حية، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والمشي على الماء، وإنطاق الذئب والحصا.. ونحو ذلك.. ولما كان مثل ذلك محالاً ممتنعاً في العقل بطل ما يدّعونه.

وأجيب عنه: بأن امتناع هذه الأمور ـ في نظركم ـ لا يخلو:

إما أن يكون في قدرة الصانع ﷻ، أو في العادة.

فإن قالوا: إنه ممتنع في قدرة الصانع. فقد ألحدوا وتركوا دينهم، لأن المفروض أنهم يؤمنون بإله، ومن صفات هذا الإله القدرة ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤].

وإن قالوا: بل ذلك ممتنع في العادة.

قيل لهم: وما المانع من أن ينقض الله تعالى العادات، ويظهر المعجزات على أيدي رسله كبرهان ساطع ودليل قاطع على صدقهم وصحة دعواهم.

هذا، وقد برهن الإمام محمد عبده[1] على أن حدوث مثل هذه الأفعال ـ وهو ما يسمى بـ(المعجزة) ـ ليس من نوع الممتنع عقلاً، وفي ذلك يقول: (المعجزة ليس من نوع المستحيل عقلاً). فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف.

قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال.

فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي. عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد مَن اختصه الله بفضل من عنده، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة، وتابعاً لأي سبب إذا سبق في علمه أن يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة مَن ظهرت على يده، لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلّغ

---

(١) هو محمد بن عبده بن حسن خير الله ولد ١٢٦٥هـ. حفظ القرآن الكريم ودرس التجويد في الجامع الأحمدي بطنطا ثم انتقل إلى الأزهر سنة ١٢٨٢هـ. اتصل بجمال الدين الأفغاني ١٢٨٧هـ فتأثر به، سافر إلى سوريا وأوربا وأصدر مع أستاذه الأفغاني جريدة «العُروة الوثقى» سنة ١٣٠١، اشتغل بالتدريس والقضاء والإفتاء ودعا إلى الإصلاح. توفي سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م.

عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى.

ومن المحال على الله أن يؤيد الكذب، فإن تأييد الكذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليها البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمَن ظهرت على يده. وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة[1].

٧ ـ **قالوا**: إن ما أتى به الأنبياء مثل أعمال الصلاة من القيام والقعود، والركوع والسجود. وأعمال الحج من السعي بين الصفا والمروة، والطواف بالبيت وتقبيل الحجر، ورمي الجِمَار، وأعمال الصيام من الجوع والعطش، كلها مستقبحة عند العقول، وحينئذ لا تكون من أوامر الحكيم تعالى، لأنه لا يأمر بما هو مستقبَح عند العقول، فوجب أن ترد عليهم ولا تقبل منهم[2].

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر أن من هذه الأعمال ما هو غير معقول المعنى أي لا تظهر وجه الفائدة فيه نفسه، إلا أن امتثال أوامر الله تعالى حسن في ذاته، وإن لم نلحظ منفعة خاصة به.

ثم ـ لا شك ـ أن في هذه الأعمال وما شابهها حكمة لا يدركها العقل فجاء الرسول منبهاً له ككونها وسيلة لصلاح كثير من الخلق، وداعية لهم إلى توحيد الله والثناء عليه، وغير ذلك مما ينال العباد منه جزيل الثواب والعطاء في الدنيا والآخرة.

٨ ـ **قالوا**: لا سبيل للرسول إلى تلقي الرسالة عن الخالق ـ ﷻ ـ وذلك لأنه تعالى مما لا يدرك بالحواس، ولا يشاهد بالأبصار بحيث يتولى مخاطبة الرسول بنفسه من حيث يراه ويعلمه، وإنّما يدعي الرسول العلم بالرسالة من جهة صوت يسمعه، أو كتاب يسقط عليه، أو سماع شخص يدّعي أنه من ملائكة ربه. ومَن يدري؟ فلعل صاحب ذلك الصوت ومكلمه بعض الملائكة، أو الجن، أو مستتر عنه من الإنس...

فلا سبيل إلى العلم بأن متولي مخاطبته هو الله، وكذلك لا سبيل له إلى العلم بأن الذي أدى إليه الرسالة عن ربه ملك مقرّب، إذ لعل الذي خاطبه بعض السحرة أو المشعوذين... ثم إن تعويله على كتاب يظن أنه من عند ربه من أبعد الأمور لاحتمال أن يكون ذلك من عمل البشر ونظمهم وقد حملته الريح إليه، وأسقطته عليه.

---

(١) رسالة التوحيد ط١٤ ص٨٠.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة لعبدالجبار بن أحمد ص٥٦٣.

وحيث ثبت لنا فساد الطريق إلى تلقي الرسالة عن الله ﷻ ثبت لنا فساد القول بالنبوة والرسالة الإلهية مطلقاً.

وأجيب عنه: بأن هناك عدة سبل يعلم المخاطب بواسطتها أن متولي خطابه هو الله ﷻ.

منها: أن الله تعالى يضطر المخاطب إلى العلم بذاته، ووجوده، ثم يضطره إلى العلم بأنه هو المخاطب له وأن ما سمعه هو كلامه.

ومنها: أن الله تعالى يضمن خطابه الإخبار عن الغيوب وما أسرّته النفوس ـ ولا سيما نفس المخاطب وما اعتقده في نفسه ولم يطلع عليه أحد من الخلق ـ فيعلم عندئذ أن المتولي لخطابه هو علاّم الغيوب، لعلمه سلفاً بأن الإخبار عن ذلك وإصابة الواقع في جميعه متعذر على المخلوقين، وأن المنفرد بهذا هو الله رب العالمين.

ومنها: أن الله تعالى قد يعلم مخاطبه (الرسول) بأنه هو الله، وذلك بأن يقول له: (إنني أنا الله) وآية ذلك (أنني أقلب الجماد حيواناً، وأفلق البحر، وأخرج يدك بيضاء، وأحيي الموتى...) فيعلم الرسول أن المتولي لخطابه هو محدث الآيات، ومبدع المعجزات، لعلمه سلفاً بأن الخلق لا قدرة لهم على ذلك.

ومنها: أن الرسول قد يعلم أن الذي أنزل عليه بالرسالة ملك من عند ربه، وليس بساحر ولا شيطان، وذلك بأن يكون الخطاب الذي أداه إليه متضمناً للإخبار عن الغيوب أو غير ذلك.

وأما الكتاب الساقط على الرسول فلا بد ـ لكي يقبل ـ من أن تكون معه آية تظهر على يد ملك يؤديه أو غير ذلك[1].

وحيث ثبت وجود السبيل إلى تلقي الرسالة عن الخالق تعالى ثبتت النبوة والرسالة الإلهية.

٩ ـ وكما قيل قديماً أن الإنسان يمكنه أن يكتفي بعقله في تنظيم شؤونه الحياتية، وتلبية متطلباته الضرورية، فقد قيل حديثاً: إن الإنسان يمكنه الاكتفاء بالعلم في تنظيم حياته، وتأهيله بمؤهلات السعادة والسلام.

وأجيب عنه: بأنا لا ننكر قيمة العلم وأهميته في حياة الناس، فهو رائد الحضارة وباعث النهضة..، قدّم ويقدّم الكثير جداً من الخدمات الهامة للبشرية.

ولكننا نقول: إن العلم وحده لا يكفي في إسعاد البشرية، وتنظيم كافة شؤونها

---

(١) سيأتي لهذا مزيد بيان عند كلامنا على الوحي وإمكان حدوثه.